الباب التاسع والعشرون

في القيم الأخلاقية

وفادة الخنساء على الرسول:

ومما يحكى عن الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الفصيحة، الصحابية الشجاعة، أنها قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها من بني سليم، فأسلمت، وهي القائلة في رثاء أخيها صخر:

وإن صخراً لمولانا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتوا لنحّار
وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وكان النبي ﷺ يعجبه شعرها، ويستنشدها، ويقول: «**إهيه يا خناس**» ويومىء بيده الشريفة ﷺ.

قدوم عدي بن حاتم الطائي:

ولما قدم عدي بن حاتم الطائي على رسول الله ﷺ، وحادثه فقال: يا رسول الله، إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس، فقال له الرسول ﷺ: «**سمهم**».

فقال: أما أشعر الناس، فامرؤ القيس بن حجر، وأما أسخى الناس ، فحاتم بن سعد الطائي، يعني أباه، وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب.

فقال رسول الله ﷺ: «**ليس كما قلت يا عدي: أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخى الناس فمحمد ـ يعني نفسه ـ ﷺ، وأما أفرس الناس فعلي بن أبي طالب**».

وهذا العائذ بن محصن بن ثعلبة من بني عبد القيس من ربيعة ، الشاعر الجاهلي، من أهل البحرين المعروف بالمثقب العبدي المتوفى حوالي ٣٥ قبل الهجرة، يقول بعنوان قيم أخلاقية:

لا تقولن إذا ما لم ترد ... أن تتم الوعد في شيء نعم
حَسَنٌ قول نعم من بعد لا ... وقبيح قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشة ... فبلا فابدأ إذا خفت الندم
فإذا قلت نعم فاصبر لها ... بنجاح القول إن الخلف ذم
لافإن الذم نقص للفتى ... ومتى لا يتقي الذم يذم

أكـــرم الجــار وراعي حقــه ... إن عرفــان الفتــى الحق كــرم
لا تـــراني راتــعــاً في مجلــس ... في لحــو م الناس كـالسبع الضرم
إن شر الــنـاس مـن يشـكر لـــي ... حـين يلقانـي وإن غــبـت شتم
وكـــلام ســيء قـــد وقـــرت ... أذني عــنــه وما بـي من صـمـم
فتـعـزيـت خـشـاة أن يــرى ... جـاهـل أني كـمـا كـان زعـــم
ولبعـض الصفــح والإعــراض عــن ذي الخــنـا أبقى وإن كـان ظلم

وهـذا عـمرو بن سـعـد بن مالك المعروف بالمرقش الأكبر من بكر بن وائـل من شعـراء الجاهلية، ومن الشجعان المشهورين، توفي حـوالي عام ٧٥ قبل الهجرة النبوية يقـول:

إنـــا محيوك يـــا سلمى فحيينا ... وإن سقيت كـرام الـنـاس فاسقينا
وإن دعـــوت إلى جـلى ومكرمة ... يومـاً سراة كـرام الـنـاس فادعينا
إن تبتدر غـــايـة يومــاً لمـكـرمـة ... تـلـق السوابق مـنـا والمصلـــينا
وليس يهـلـك مـــنــا سيد أبـــداً ... إلا ا فتلينا غــلامــاً سيّداً فـــينا
إنا لنرخص يــو م الـروع أنفسنا ... ولـو نـسام بـهـا في الأمــن أغلينا
شعث مفارقنـا تغــلي مراجلنا ... نـأ ســـو بـأموالـنـا آثار أيـديـنـا
ألمطعمــو ن إذا هبــت شـآمـيــة ... وخــيـر نــادٍ رآه الـنـاس ناديـــنـا
إني لـمـن معشر أفنى أوائــلـهـم ... قـيـل الكماة ألا أيـن المحا مونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... مـن فـارس؟ خـالهم إياه يعنونا
إذا الكـمـاة تنحــوا أن يصيبهـم ... حـدّ الظّـبــاة وصلناها بأيـديـنـا
ولا تـراهـم وإن جـلـت مصيبتهم ... مع البكا ة على من مات يبكـونـا
ونـركــب الكــره أحياناً فيفرجه ... عـــنــا الحــفـاظ وأسياف تـواتـينا

عمر بن الخطاب يختار قائداً:

وعن معـقـل بن يسار،أن عمـر بن الخـطاب ﷺ شـاور الهرمزان فقال: ما ترى في الجهاد أأبتدىء بفارس أو بأذربيجان أم بأصبهان؟

فقال الهرمزان: إن فارس وأذربيجان الجناحان،وأصبهان الرأس، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان فآبدأ بالرأس.

فدخل عمربن الخطاب ﷺ المسجد والنعمان بن مقرن ﷺ يصلي، فقعد إلى جنبه، فلما قضى النعمان صلاته، قال له: إني أريد أن استعملك، فقال النعمان: أما جابياً فلا، ولكن غازياً، فقال عمر: فأنت غاز، فوجهه إلى أصبهان.

ويقال إن المغيرة بن شعبة كان مع النعمان،فلما أسرع رمي الفرس في المسلمين، قال المغيرة للنعمان: يرحمك الله ،إنه قد أسرع في الناس الرمي فأحمل، فقال النعمان:والله إنك لذو مناقب، لقد شهد مع رسول الله ﷺ القتال، وكان إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس، وتهبّ الرياح وينزل النصر.

ثم قال النعمان: إني هازٌّ لوائي ثلاث مرات: فأما الأولى ليقضي الرجل حاجته ويتوضأ، وأما الثانية لينظر الرجل في سلاحه وشسعه ليصلحه،وأما الثالثة فأحملوا ولا يلوين أحد على أحد، وإن قتل النعمان فلا يلوي أحد، فإني أدعو الله عز وجل بدعوة، فعزمت على كل امرىء منكم أن يؤمن عليها ، فقال النعمان: اللّهم اعط النعمان اليوم الشهادة في نصر المسلمين وافتح عليهم.

وهزّ النعمان لواءه أول مرة، ثم هزّ الثانية، ثم لبس درعه، ثم هزّ الثالثة فحمل القوم، فكان أول شهيد ﷺ، فقال معقل بن يسار: فأتيت إليه فتذكرت قوله وعزمته، فجعلت عليه علماً، وكان دأبنا كذلك على من قتل حتى سقط قائد الفرس ذوالحاجبين عن بغلته فآنشق بطنه، فهزمهم الله، ثم رجعت على النعمان ومعي شيء من الماء فغسلت وجهه ففتح عينيه، فقال: من أنت؟ فقلت: معقل بن يسار، فقال: ما فعل الناس؟ فقلت: فتح الله عليهم، قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر بن الخطاب، ففاضت نفسه ﷺ وقال الشاعر:

لعمرك ما أهويت نفسي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
ولست بماش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

وقال امرؤ القيس:

فلو أن ما اسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى السوق، فلحقت عمر بن الخطاب امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين: هلك زوجي وترك صبية صغاراً، والله ما ينضجون كراعاً، تقصد أنهم لا يستطيعون أن يطبخوا طعاماً يأكلونه لصغرهم وضعفهم، ولا لهم زرع ولا ضرع وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري، قد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ.

فوقف معها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، ولم يمض، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً، وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه، ثم قال: خذي الجمل وما حمل، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأدري أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه، ثم أصبحنا نأخذ أنصباءنا من الفيء.

وقال ابن الجوزي: تأمّلت أحوال الناس في حالة علوّ شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين حسراتهم حينئذ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من فرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات.

فكلهم نادم في حالة الكبر، حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات، فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت، قال: وا أسفاه على ما جنيت؟ وإن يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ما يلتذّ به.

أما من أنفق عصر الشباب في العلم، فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جني ما غرس،ويلتذّ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما ناله من لذات العلم.

هذا مع وجود لذاته في الطلب،الذي كان يأمل به إدراك المطلوب، وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها، كما قال الشاعر:

أهتز عند تمنّي وصلها طرباً ورُبّ أمنية أحلى من الظفر

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قال: هاجر إلى الحبشة رجال من المسلمين،وتجهزأبو بكر مهاجراً؟ فقال النبي ﷺ: على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: أو ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟. قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ لصحبته، وأعدَّ راحلتين.

قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيتنا في حرّ الظهيرة، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مقبلا متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها.

فقال أبو بكر: فداً لك بأبي وأمي، والله إن جاء به في هذه الساعة إلا لأمر، فجاء النبي ﷺ، فاستأذن له، فدخل فقال حين دخل لأبي بكر: «**أخرج من عندك**» قال: إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال : «**فإني قد أذن لي في الخروج**». قال أبو بكر: فالصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟. قال: نعم، فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «**بالثمن**».

الرسول يسأل حساناً عن مدح أبي بكر:

وروى ابن سعد عن الزهري، قال: قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «**هل قلت شيئا في أبي بكر؟**». قال حسان: نعم، فقال رسول الله: «**قل وأنا أسمع**»، فقال حسان:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا

قال: فضَحِك رسول الله ﷺ، حتى بدت نواجذه، ثم قال: «**صدقت يا حسان هو كما قلت**».

وروي أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا فقصّها على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا أبا بكر رأيت كأني استبقت أنا وأنت درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف، قال: خيراً

يا رسول الله يبقيك الله حتى ترى ما يسرّك ويقرّ عينك، فأعاد الرسول ﷺ ثلاث مرات، فقال أبو بكر: يا رسول الله يقبضك الله إلى رحمته ومغفرته وأعيش بعدك سنتين ونصفاً.

المحبة ما لها وما عليها:

إن المحبّة تدل على اللزوم والثبات، قال ابن فارس: واشتقاق الحبّ والمحبّة من أحبّه إذا لزمه،وقال الراغب الأصفهاني:حببت فلاناً في الأصل بمعنى أصبت حبّة قلبه، نحو: شغفته، وكبدته، وفأدته (أي أصبت شغفته وكبده وفؤاده). وأما قولهم: أحببت فلاناً، فمعناه جعلت قلبي معرضا لحبه، واستعمل حببت، في موضع أحببت، والمحبة إرادة ما تراه وتظنّه خيراً، والاستحباب أن يتحرى الإنسان في الشيء أن يحبّه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة فصلت: ١٧].

ومحبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبّة العبد لله سبحانه وتعالى طلب الزلفى إليه أي طلب القرب إليه بامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه،قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

الرسول يصف المتحابّين في الله:

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ، أقبل على الناس بوجهه فقال: «**يا أيها الناس إسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، على مجالسهم وقربهم من الله**»، فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس،وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ، فقال: يا نبي الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم، وقربهم من الله؟ إنعتهم لنا - أي صفهم لنا-:

فسرّ وجه الرسول ﷺ لسؤال الأعرابي،فقال رسول الله ﷺ: «**هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا**

يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، ويجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة، ولايفزعون وهم أولياء الله، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». أخرجه أحمد والحاكم.

وقال مجنون ليلى قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري:

وقالوا لو تشاء سلوت عنها ... فقلت لهم فإني لا أشاء
وكيف وحبها علق بقلبي ... كما علقت بأرشيه الدلاء
لها حب تنشأ في فؤادي ... فليس له وإن زجر انتهاء
وعاذلة تقطعني ملاماً ... وفي زجر العواذل لي بلاء

وعن أبي هريرة رضي الله عنه،أن رسول الله ﷺ، قال: «**من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**». أخرجه مسلم

المحبة عند ابن الفارض :

وقال ابن الفارض، أبو حفص عمر بن أبي الحسن بن علي بن المرشد في الحب:

ألا في سبيل الحب حالي وما عسى ... يكن أن ألاقي لو دريتم أحبتي
أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي ... يضركمُ أن تتبعوه بجملتي
وجدت بكم وجداً قوى كل عاشق ... لو احتملت من عبئه البعض كلّت
برى أعظمي من أعظم الشوق ضعف ما ... بجفني لنومي أو بضعفي لقوتي
وهى جسدي مما وهى جلدي لذا ... تحمله يبلى وتبقى بليتي
كأني هلال الشك لولا تأوهي ... خفيت فلم تهد العيون لرؤيتي
فجسمي وقلبي مستحيل وواجب ... وخدي مندوب لجائز عبرتي
وقالوا جرت حمراً دموعك قلت عن ... أمور جرت في كثرة الشوق قلّت
نحرت لضيف الطيف في جفني الكرى ... قرى فجرى دمعي دماً فوق وجنتي
وأبعدني عن أربعي بعد أربع ... شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي
فلي بعد أوطاني سكون إلى الفلا ... وبالوحش أنسي إذ من الإنس وحشتي

المحبّة أنواع وضروب:

وقالوا عن المحبّة بأنها أنواع وضروب، وأفضلها محبّة المتحابّين في الله عزوجل، وأن يحبّ المرء من يحبّه لله وحده، فالمحبة في الله أفضل وأدوم، لأنّ من أحبّ من أجل مصلحة تنتهي المحبّة بتحقيق تلك المصلحة، فما بُنِيَ على المادي انتهى بانتهاء المادة التي هي دواعي المحبّة، وما بُنِيَ على الأرواح تعانقت الأرواح وإن تباعدت الأشباح.

وقال الحسن البصري: ادّعى قوم محبّة الله، فانزل الله آية المحبة فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣١-٣٢].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، إشارة إلى دليل المحبّة وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتّباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها محبّة المرسل إليكم، فلما لم تحصل المتابعة فليست محبّتكم له حاصلة ومحبّته لكم منتفية.

وهذا ابن الفارض يصف الحب بقوله:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل ... فما اختاره مضنى به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحته عناً ... وأوله سقم وآخره قتل
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به ... شهيداً وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت في حبه لم يعش به ... ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
وقل لقتيل الحب وفيت حقه ... وللمدعي هيهات ما الكحل الكحل
أحبة قلبي والمحبة شافعي ... لديكم إذا شئتم بها اتصل الحبل
أحباي أنتم أحسن الدهر أم أسىً ... فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخِل

المحبّة سبب انتظام الأمور:

وقال الراغب الأصبهاني: المحبّة والعدل من أسباب نظام أمور الناس، ولو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبّة، لاستغنوا بها عن العدل، فقد قيل: العدل خليفة المحبّة، يستعمل حيث لا توجد المحبّة، ولذلك عظّم الله تعالى المنّة بإيقاع المحبّة

بين أهل الملة، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [سورة مريم: ٩٦]. أي محبّة في القلوب تنبيهاً على أن ذلك أجلب للعقائد، وهي أفضل من المهابة، لأن المهابة تنفر القلوب، والمحبّة تؤلف القلوب.

وقالوا: طاعة المحبّة أفضل من طاعة الرهبة، لأن طاعة المحبّة من داخل القلب، وطاعة الرهبة من خارجه، وهي تزول بزوال أسبابها، وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا تعاونواعملوا، وإذا عملوا عمروا، وإذا عمروا عمروا وبورك لهم.

وعن أبي ذرالغفاري ﷺ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده، وأن أبا ذرّ عاد رسول الله ﷺ، فقال: بأبي ذر أنت يا رسول الله، أي الكلام أحب إلى الله؟.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما اصطفاه الله لملائكته: سبحان ربي وبحمده، سبحان ربي وبحمده**». أخرجه الترمذي

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخصلتين يحبّهما الله: الحلم والأناة**». أخرجه مسلم

وقال مجنون ليلى قيس بن الملوّح:

وجدت الحب نيرانا تلظى قلوب العاشقين لها وقود
فلو كانت إذا احترقت تفانت ولكن كلما احترقت تعود
كأهل النار إن نضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود

وعن أنس بن مالك ﷺ، أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمّر به رجل، فقال: يا رسول الله، إني لأحبّ هذا، فقال له النبي ﷺ: «**أعلمته؟**» قال: لا قال: «**أعلمه**» فلحقه، فقال: إني أحبّك في الله، قال له الرجل: (أحبك الله الذي أحببتني له). أخرجه أبو داود

وعن رجل من بني سليط، قال: أتيت النبي ﷺ، وهو في جماعة من الناس، فسمعته يقول: «**المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ـ وأشار إلى صدره ـ وما توادّ رجلان في الله تبارك وتعالى فيفرّق بينهما إلّا بحدث يحدثه أحدهما**». أخرجه الإمام أحمد

وعن أبي هريرة ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا،ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلاَ أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ إفشوا السلام بينكم**». أخرجه مسلم

المحبة عند الجاحظ:

وقال أبو عثمان الجاحظ : ينبغي لمحبّ الكمال أن يعوّد نفسه محبّة الناس والتودّد إليهم والتحنّن عليهم، والرأفة والرحمة لهم، فإن الناس قبيل واحد متناسبون، تجمعهم الإنسانية، وحلية القوة الإلهية هي في جميعهم، وفي كل واحد منهم، وهي قوة العقل، وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً.

وإذا كانت نفوس الناس واحدة، والمودة إنما تكون بالنفس، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، وذلك في الناس طبيعة ولو لم تقدم الأهواء التي تحبب لصاحبها الترؤس فتقوده إلى الكبر والإعجاب، والتسلط على المستضعف واستصغار الفقير، وحسد الغني، وبعض ذوي الفضل، فتسبب من أجل هذه الأسباب العداوات ، وتتأكد البغضاء بينهم.

فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية، وانقاد لنفسه العاقلة صار الناس كلهم له إخواناً وأحباباً، وإذا أعمل الإنسان فكره رأى أن ذلك واجب عليه، لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء، أوغير فضلاء، فالفضلاء يجب عليهم محبتهم لموضع فضلهم، وغير الفضلاء يجب الرحمة بهم لما جبلوا عليه من نقص الأخلاق، فيحقّ لمحبِّ الكمال أن يكون رحيماً لجميع الناس، متحنناً عليهم رؤوفاً بهم.

وجاء في الحديث النبوي الشريف،فعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ : متى الساعة يا رسول الله؟.

قال رسول الله: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها من كثيرصلاة، ولا صوم، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال له : «**أنت مع من أحببت**».

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، أن رجلاً زار أخاً له في قرية ، فأرصد الله له (أي جعل من يرقبه على طريقه) ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال الرجل: أريد أخاً لي في هذه القرية.

قال له: هل لك عليه من نعمة تربها (أي تقوم بإصلاحها)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عزوجل، قال: فإني رسول الله إليك، فإن الله قد أحبك كما أحببته فيه. أخرجه مسلم

وقال الشاعر:

تنكر حال علتي الطبيب ... وقال أرى بجسمك ما يريب
جسست العرق منك فدل جسمي ... على ألم له خبر عجيب
فما هذا الذي بك هات قل لي ... فكان جوابه مني النحيب
وقلت: أيا طبيب الهجر إني ... وقلبي يا طبيب هو الكئيب
فحرك رأسه عجباً لقولي ... وقال: الحب ليس له طبيب
وأعجبني الذي قد قال جدًّا ... فقلت بلى إذا رضي الحبيب

وعن سهل بن سعد ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله**».

قال: فبات الناس يذكرون ليلتهم (أي في تساؤل) أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**».

فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**» فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية، فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا (أي مسلمين).

فقال رسول الله ﷺ: «**أنفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**».

وعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبّك ، والله إني لأحبّك**». فقال : «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللّهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

الإعتراف بالفضل :

يحكى أن إبراهيم بن أدهم، إذا صنع له أحد معروفاً حرص على أن يكافئه على معروفه، بأفضل مما قدّم له من معروف،وإن لم يستطع كافأه بالمثل.

قال أحد أصحاب إبراهيم بن أدهم، كنت قادماً من الرملة ذاهباً إلى بيت المقدس، راكباً على حمار، فلقيني إبراهيم بن أدهم، وقد اشترى تفاحاً وسفرجلاً وخوخاً، وأنواعا من الأطعمة، فقال لي: أحبّ أن تحمل هذا لهذه، فإذا بامرأة عجوز يهودية تسكن في كوخ لها، فقال: أن توصل هذا إليها فإنني مررت بها وأنا أمشي ، فبيَّتتني عندها فأحبّ أن أكافئها على صنيعها ذلك.

وقال الشاعر:

ومن يُسْدِ معروفا إليك فكن له شكوراً يكن معروفه غير ضائع
ولا تبخلن بالشكر والقرض فاجزه تكن خير مصنوع إليه وصانع

وقال أحدهم: إن الواجب على المرء أن يشكر النعمة التي وصلت إليه بغير حول مِنّة وقوّة، ويحمد المعروف على حسب وسعه وطاقته إن قدر فبالضعف، وإلا بالمثل، وإلا بالإعتراف بالفضل لذوي الفضل، الذي أسدى إليه تلك النعمة، ولا يقابل ذلك بالجحود، وأولى بالشكر والاعتراف له بالفضل هو الله وحده ،ومن لايشكر الناس على معروفهم لا يشكر الله، وماذا ينقص لديه إن بذل الشكر وقال: جزاك الله خيراً وزادك من واسع فضله.

وقال الشاعر:

علامة شكر المرء إعلان حمده فمن كتم المعروف منهم فما شكر
إذا ما صديقي نال خيراً فخانني فما الذنب عندي للذي خان أو فجر

والإسلام حثّ ويحثّ على هذا الطريق، طريق الاعتراف بالفضل، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

والله سبحانه وتعالى لا شكّ هو صاحب الفضل الأول، فهو المنعم في الأولى تفضلاً، وبيده في الآخرة الجزاء تكرّما لمن شكر، وآمن وعمل صالحاً وقال: إنني من

المسلمين، واستمع إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فاطر ٣٢-٣٥].

فانظر أيها العاقل المتبصّر كيف قسم الله تبارك وتعالى الناس إلى ثلاثة أقسام:

فالقسم الأول: هو الظالم لنفسه، بالتقصير في العمل والتقصير في العمل جحود لفضل المنعم، على ما أنعم به على هذا القسم من الناس. إذاً من هنا جاء الحكم بأنه ظالم لنفسه.

القسم الثاني: المقتصد أن يتخذ طريقاً وسطاً، يعمل بما أمر به في أغلب الأحيان، وذلك يعتبر اعتراف بالفضل لصاحب الفضل، وهو الله، وإن شابه بعض التقصير، فهو القسم الوسط.

القسم الثالث: وهذا القسم هو السابق بالخيرات، وهو القسم المحبب إلى الله وإلى الناس جميعا لسبقه بالخير والفضل، فهو شاكر عامل معترف بفضل الله عليه، وهذا الصنف هو المختار، وذلك بفوزه بقصب السبق على الأصناف الأخرى، فتبوأ تلك المنزلة العالية، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فاطر ٣٤-٣٥].

ودار المقامة: هي دار الإقامة الدائمة ، والدائم ما فيها وهي الجنة، وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن النوم مما يقرّ الله به أعيننا في الدنيا، فهل في الجنة نوم؟.

قال النبي ﷺ: «**ألا إن النوم شريك الموت ،وليس في الجنة موت**». قال الرجل: فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «**ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة**» فنزلت الآية : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾. [سورة فاطر: ٣٥].

وقال الشاعر:

أحق الناس منك بحسن عون لمن سلفت لكم نعم عليه
وأشكرهم أحقهم جميعاً بحسن صنيعة منكم إليه

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني ﷺ، أنه قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين، قسم في الناس الغنائم في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا في أنفسهم شيئاً (أي دار في خاطرهم) إذ لم يصبهم ما أصاب الناس من الغنائم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما أصبت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك،وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا وجاء آخرون فردّهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «**يا معشر الأنصار: ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم**»، قالوا: بلى، لله ولرسوله المن والفضل.

ثم قال : «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك،**

وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشرالأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟.

فالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى اَخْضَلَّت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا. أخرجه البخاري ومسلم

إنه موقف عظيم يتجلّى فيه اعتراف الرسول ﷺ بفضل الأنصار، واَعتراف الأنصار بفضل الله ورسوله عليهم،ثم ما أكرمهم به رسول الله ﷺ، فالرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأنه سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [سور الأحزاب: ٦].

وقد اعترف المهاجرون بفضل الأنصار عليهم، فعن أنس بن مالك ﷺ، أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة أتاه المهاجرون، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل، من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى خفنا أن يذهبوا بالأجركله، فقال النبي ﷺ: «**لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم**». أخرجه أبو داود والترمذي

موقف أبي بكر من عمر:

وهذا موقف أبي بكر الصديق ﷺ من عمر بن الخطاب، وموقف عمر بن الخطاب من أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: فعن أبي الدرداء ﷺ، أنه قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر الصديق ﷺ آخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدىعن ركبتيه، فقال النبي ﷺ:«**أما صاحبكم فقد غامر**»،أي خاصم فلما وصل سلم، وقال: يا رسول الله: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه، ثم ندمت،فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك.

فقال النبي ﷺ: «**يغفر الله لك يا أبا بكر ـ ثلاثاً ـ ثم إن عمر بن الخطاب ندم**»، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبي ﷺ، فلما

وصل عمر بن الخطاب تغيّر وجه رسول الله ﷺ فغضب على عمر حتى أشفق أبو بكر على عمر من موقف الرسول، فجثى أبو بكر على ركبتيه أمام رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم (مرتين).

فقال النبي ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟**» (مرتين) فما أوذي أبو بكر بعدها. أخرجه البخاري

فهل هناك موقف أفضل من موقف رسول الله ﷺ، للاعتراف بفضل أبي بكر الصديق ﷺ، وكيف غضب الرسول على عمر بن الخطاب ﷺ من أجل أبي بكر،ومن هو عمر بن الخطاب وهل هناك أحد يأتي بعد أبي بكر من عمر، ومواقفه في سبيل الله وبلائه في نصرة دين الله.

ومما أوصى به لقمان الحكيم ولده قائلا له: يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء، وقال الله تعالى : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩].

الأدب قبل العلم:

يحكى عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال :كفى بالأدب شرفاً أنه يدّعيه من لا يحسنه،ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه وينفيه عن نفسه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه، وقال الشاعر:

ويكفي خمولاً بالجهالة أنني أراع متى أنسب إليها وأغضب

وقال الإمام علي كرم الله وجهه: قيمة كل إنسان ما يحسن، فأخذ أحد الشعراء المعنى فقال:

قال علي بن أبي طالب وهو اللبيب الفطن المتقن
كل امرىء قيمته عندنا وعند أهل العلم ما يحسن

والأدب يتفرع إلى فروع، وأنواع شتى ومنها: الأدب مع الله عزّ وجلّ والأدب مع الرسول ﷺ، والأدب مع العلماء، والأدب مع الحكام، والأدب مع الناس، والأدب مع النفس، والأدب مع الأهل والأولاد، تلك هي بعض المواقف التي يحتاج إليها الإنسان أن يتعامل مع الفئات البشرية، كل فئة وأدبها.

والأدب مع الله عزّ وجلّ أن لا يفقدنا مما أمرنا به، وأن لا يجدنا فيما نهانا عنه، أو بعبارة أخرى،أن لا يفقدنا من مواطن محبوباته، وأن لايجدنا في مواطن مكروهاته، وقال بعضهم: المقصود أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه،والتأدّب بآدابه ظاهراً وباطناً، ولا يستقيم ذلك إلا بإحدى ثلاث: معرفته بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحبّ، وما يكره، ونفس مستعدة قابلة متهيئة لقبول الحقّ علماً وعملاً واعترافاً وتأدية.

ومن الأدب مع الله سبحانه وتعالى: التأدب مع القرآن الكريم، تلاوة وتدبرا، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [سورة محمد: ٢٤]، لأن في ذلك: العلم والمعرفة بما أمر به الله عز وجل عباده، ونهى عنه، وتعظيم شعائر الله، وعدم انتهاك محارمه.

والتدبر للقرآن الكريم، يوصل إلى أفضل السبل والسمو الروحي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢].

ومن الأدب مع الله سبحانه وتعالى، التوجه إليه بالدعاء والتضرع لقضاء الحاجات، وطلب العون والتوفيق منه سبحانه، والله علّمنا أن نقول بل ونعتقد: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود: ٨٨].

ودعاء المؤمن لله أن يكون المؤمن واثقاً من إجابة الله لدعائه لأن الله قال في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [سورة غافر: ٦٠]. وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [سور الفرقان: ٧٧]. وهذا رسول الله ﷺ، وهو يدعو الله أن يعينه على الشكر والذكر وحسن العبادة حيث قال: «**اللّهم أعِنّي على ذكرك**

وشكرك وحسن عبادتك»، ولنا برسول الله أسوة حسنة، وحقيقة الأدب هو الأخذ بمكارم الأخلاق في جميع المواقف، وقد صدر بعض المفسرين أدب الرسول مع الله عزوجل يقول الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النجم: ١٧-١٨]، فقال: إن هذا وصف لأدب رسول الله ﷺ في ذلك المقام العظيم إذ لم يلتفت جانباً ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، فالالتفات زيغ، والتطلع إلى غير ذلك طغيان وتجاوز، ولذلك جاء الوصف اللائق به ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [سورة النجم ١١-١٢]. وهي شهادة إلى أدب التبليغ بغير زيادة أو نقصان ﷺ. وقال الشاعر في قول الإمام علي بن أبي طالب:

(قيمة كل امرىء ما يحسن):

حسود مريض القلب يخفي أنينه ... ويضحي كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رحت في العلم راغباً ... وأجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعونها ... وأحفظ مما استفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ... ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه

إن الرجل منا يجب عليه أن يتعلّم الأدب قبل أن يتعلّم العلم، فالعلم لا ينال إلا بأدب السؤال، وأدب المجالسة ، وأدب الصحبة، وأدب المعاشرة.

أخلاق المُصْطَفين الأخيار:

لذلك كانت حلية المصطفين الأخيارالأدب، فمن تحلّى بالأدب تحلّى بمكارم الأخلاق، وفي الحديث النبوي الشريف يقول الرسول الكريم ﷺ: «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن تسعونهم بأخلاقكم**».

وانظر إلى مواقف الأنبياء والرسل صلى الله عليهم أجمعين مع الله سبحانه وتعالى ، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن يقول كما حكى الله في كتابه العزيز: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الشعراء: ٧٧-٨٠]، ولم يقل: وإذا أمرضني تأدبا مع الله سبحانه وتعالى.

واستمع إلى أدب العبد الصالح يخبر النبي موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الكهف: ٧٩]، ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها تأدباً مع الله، بينما قال في الغلامين كما حكى الله ذلك في كتابه العزيز: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [سورة الكهف: ٨٢].

إنها الآداب العالية التي وردت في كتاب الله، والمؤمن الحقّ هو الذي يتحلّى بهذه الآداب، والرسول ﷺ، يقول في الحديث النبوي الشريف: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»، فكيف لا يكون الرسول الكريم متميزاً بتلك الآداب، ويتبوأ تلك المنزلة العالية من الأخلاق ، وقد وصفه الله الذي يعلم السرّ وأخفى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

ولما سئلت أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكرالصديق رضي الله عنهما عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦].

بمعنى: أدبوهم، وعلموهم، وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب اجتماع خصال الخير في الإنسان، ومنه مأدبة الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وهذا النبي موسى عليه السلام يقول بأدب مع الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: ٢٤].

وهذا موقف النبي آدم عليه السلام الذي يدل على الأدب مع الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٣]، ولم يقل: رب قدرت عليّ وقضيت عليّ.

وموقف النبي أيوب عليه السلام، يدل على الأدب مع الله سبحانه وتعالى، إذ لم يقل: عافني واشفني، وإنما عرض حاله، قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣]، إنه الأدب مع الله، والله أعلم بعباده، فهو لا تخفى عليه خافية، فجاء الجواب من الله حيث قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٤].

وهذا موقف الصديق يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وما قال لأبيه، وإخوته، ورغم موقف إخوته منه، قال الله تعالى حكاية عن النبي يوسف ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠].

فقال: ﴿أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجبّ حفاظاً للأدب مع إخوته، وحتى لا يثير حفيظة أبيهم عليهم عندما يخبره بأنهم رموه في الجبّ.

وقال: (وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ) ولم يقل: إنه أضرتكم الشدائد وجئتم إليّ وأحسنت إليكم لرفع الجهد والجوع والحاجة عنكم، تأدباً مع أبيه وإخوته وأضاف ما جرى إلى السبب ،ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب الناس إليه منه.

وقال : ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾، فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم وعلى نبينا أجمعين، ذلك الأدب الذي يحثّ عليه الإسلام المسلمين ، وتلك هي الأخلاق الفاضلة والمزايا الكاملة.

من توجيهات الرسول في الأدب:

ومن توجيهات الرسول محمد ﷺ، في الأدب يقول:

«على الرجل أن يستر عورته، وإن كان خالياً لايراه أحد أدباً مع الله على حسب القرب والبعد منه ـ سبحانه وتعالى ـ وتعظيمه وإجلاله وشدة الحياء منه ومعرفة وقاره».

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء الأدب أحد في الباطن إلا عوقب في الباطن، وقال عبد الله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقد أرشدنا الله في كتابه العزيز على احترام الرسول الكريم ﷺ والأدب معه، فمن الأدب مع الرسول الكريم بأن لا يتقدّم أحد بين يديه بأمر أو نهي، ولا يأذن ولا يتصرف حتى يأمر وينهى ﷺ، ويبلغ فقال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة الحجرات: ١].

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تتقدَّم بين يدي الإمام، وبين يدي الأدب أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه. وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهى.

وقد حذر الله المؤمنين حتى عن رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ، وجعل رفع الصوت على صوته سبباً لإحباط العمل، فما ظن من يكذب عليه أو يرد سنته وأمره مخالفاً لأمره ونهيه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [سورة الحجرات: ٢-٣].

وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى أيضاً من أن يكون الكلام مع الرسول ﷺ ككلام الناس بعضهم لبعض، وإنما يكون بالتقدير والتعظيم، ومن تعظيم الله لرسوله ومنزلته عنده، أنه لم يخاطبه باسمه مجرداً من النبوة أو الرسالة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [سورة الأنفال: ٦٥]، وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [سورة التحريم: ٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨]،

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وقال الله تعالى مخاطباً نبيه بقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [سورة المائدة: ٤١]، فهذا تقدير الله لرسوله، وذلك لمنزلة الرسول عند الله، فأين نحن من هذا الأدب العظيم، إنه لتعليم لنا معشر المسلمين حتى يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما؟

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى سائر رسله بأسمائهم، فهذا شيخ المرسلين النبي نوح عليه السلام، خاطبه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [سورة هود: ٤٦]،وقال أيضاً: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [سورة هود: ٤٨].

وخاطب سيدنا إبرهيم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [سورة هود: ٧٦].

وخاطب الله سيدنا زكريا بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [سورة مريم: ٧]، وخاطب النبي يحيى بقوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [سورة مريم: ١٢]

وليس ذلك تحقيراً أوتنقيصاً، من قيمة ومنزلة من اصطفاهم الله من الأنبياء والرسل معاذ الله، ولكن لنعلم منزلة الرسول محمد ﷺ والله هو الذي قال: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

إن الله هو المنعم المتفضل على عباده، تكرماً منه سبحانه وتعالى، ولكن إذا أنعم الله على عبد نعمة يريد أن يرى أثرها عليه، وأن يربط النعمة بالشكر، وتوظيفها لما فيه خَيْرَي الدّنيا والآخرة ، وأن ينفع بها الآخرين، ولكن بعض من أنعم الله عليهم بنعمة من نعمه يضنّ بها على الآخرين، معتقداً أن تلك النعمة ما خصه الله بها إلا لعلو منزلته عند الله،وما علم أنها ابتلاء من الله سبحانه وتعالى.

من يتَّقِ الله يجعلْ له مخرجاً:

يحكى أن قوماً ركبوا البحر، فبينما هم يسيرون في لجّة البحر، سمعوا هاتفاً يهتف بهم يقول: من يعطيني عشرة آلاف درهم حتى أعلمه كلمة تنفعه وتنقذه إذا أصابه غمّ، أو أشرف على هلاك، فقالها انكشف عنه ذلك؟.

فقام رجل ممن ركب معهم في السفينة معه عشرة آلاف درهم، فقال: أيها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف درهم، علّمني تلك الكلمة.

فقال الهاتف: إرم بالعشرة آلاف درهم في البحر، فرمى الرجل الدراهم في البحر، وإذا بالهاتف يقول له: إذا أصابك غمّ أو أشرفت على الهلاك فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [سورة الطلاق: ٢-٣]

فقال جميع من في السفينة: لقد ضيعت مالك، فأنت مجنون تشتري كلاماً وتصدق هاتفاً، فقال الرجل بكل ثقة إن هذه عظة لا أشكّ في فائدتها، وأنا متوكّل على الله، فحسبي الله ونعم الوكيل.

ثم أخذت السفينة تمخر عباب البحر، فهبّت ريح عاصف فتقاذفت الأمواج السفينة، فغرقت السفينة بمن فيها، فلم ينج من ركابها إلا صاحب العشرة آلاف درهم، إذ وجد نفسه قاعداً على لوح من ألواحها، فأخذت الأمواج ترفعه مرة وتخفضه تارة أخرى.

فحدث الرجل بعد ذلك، فقال: بعد فترة وأنا في صراع مع الأمواج ممسكاً باللّوح، إذا بي تتراى لي جزيرة في وسط البحر فاتّجهت عليها، فلما نزلت في الجزيرة ارتحت قليلاً، ثم مشيت فرأيت قصراً عالياً منيفاً، فقصدته فوجدت بابه مفتوحاً، فدخلته، فإذا فيه من كنوز البحر من اللؤلؤ والجواهر، شيء كثير، ووجدت في القصر امرأة حسناء لم أر قط أحسن منها.

فقلت لها: من أنت؟ وما قصتك؟، وأي شيء تعملين هاهنا؟ قالت: أنا فلانة بنت فلان التاجر بالبصرة، وكان أبي من كبار التجار، وكان لايصبر عنّي ورغبت

في السفر فسافر بي معه في البحر، فغرقت السفينة فما أفقت مما أصابنا إلا وأنا في هذه الجزيرة، فخرج إليّ شيطان من البحر فأصبح يتلاعب بي منذ سبعة أيام، وأنا أتأذى من ملامسته لي وملاعبته بي، وأذيّتي، ثم ينزل إلى البحر، وهكذا دأبه معي، وهذا وقت طلوعه من البحر فاتّق الله في نفسك عن أن يصيبك بسوء، وما إن أتمت كلامها حتى رأيت ظلمة هائلة، فقالت: ها هو قد جاء فاحتل لنفسك، وإلا الهلاك والدمار لي ولك.

فلما قرب مني وكاد أن يغشاني قرأت الآية الكريمة التي اشتريتها بعشرة آلاف درهم، وأنا على ظهر السفينة، فإذا به قد خرّ كقطعة حبل تحوّل رماداً من أثر الاحتراق.

فلما رأت المرأة ذلك الحدث، قالت: والله لقد هلك الشيطان، ونجونا بفضل الله، وكفانا الله شره، فمن أنت يا هذا الذي منَّ الله عليّ بك وكنت سبباً لإنقاذي من ذلك الشيطان الرجيم؟.

وبعد أن خلّصنا الله بفضله، قمت أنا وهي فانتخبنا من تلك الكنوز والجواهر ما خف ثقله وغلا ثمنه، ولما جمعنا ما اخترناه من تلك الكنوز، تحولنا إلى الساحل نراقب لعلّنا نرى سفينة قادمة طول النهار، فإذا أقبل الليل رجعنا إلى القصر فمكثنا أياماً لم نر سفينة، ثم تراءت لنا سفينة من بعيد فلوّحنا لها بأيدينا، فلما وصل صاحب السفينة بسفينته إلينا طلبنا منه أن يحملنا إلى البصرة بعد أن نجانا الله مما نحن فيه، فلما وصلنا إلى البصرة نزلنا في منزلي فوصفت المرأة لي منزل أهلها، فقلت لها: امكثي حتى أخبر أهلك.

فذهبت إلى منزل أهلها فطرقت باب بيتهم، فخرج أحد إخوتها، فقال: تفضل أدخل، فقلت: لا أدخل، وأنا رسول فلانة بنت فلان الفلانية، فما إن سمع من بالمنزل من أهلها حتى بكوا، وقالوا: لقد جدّدت مصابنا بذكرها.

فقلت لهم: لا داعي للبكاء وهي حيّة ترزق، فتفضّلوا معي لتأخذوها، فجاء أهلها وهم بين مصدّق ومكذّب، فلما رأوها كادوا يموتون فرحاً، وسألوها عن خبرها، فأخبرتهم بذلك، وطلبت أن يزوجوني بها، فوافقوا على ذلك، فتزوجتها فرزقني الله منها الأولاد والمال، وعشنا في سعادة وهناء، وأنا اليوم أيسر أهل البصرة.